



في السنة السابعة للحرب الدائرة في سوريا، تتكثّف في سماء الأرض المستباحة سحبُ ركامية سوداء، تنذر بوقوع أربع حروبٍ أشد هولاً من كل ما سبقها من معارك ومواجهات بدأت بأناشيد الحرية والكرامة، وتحولت فيما بعد إلى مقتلةٍ كبرى، بعد أن جرت وتأثيرها المتصاعدة حرباً بالوكالة، وغدت ساحتها ملعاً مفتوحاً لجملةٍ من اللاعبين الأشداء، ثم أفضت تراكماتها لاحقاً إلى تهميش العنصر المحلي، وإضعاف حضوره في المشهد الميداني المتنقل، لتفضي تفاعلاتها، في نهاية مطافٍ طويل، إلى تهيئة المسرح وتجهيزه لسلسلة من الحروب بالأصلية، تتواجه فيها القوى الإقليمية والدولية بشكل مباشر. ففي غضون الفترة المديدة الماضية، استهلكت سوريا مقومات وجودها دولة، وفقدت القوى السورية المتحاربة، بما في ذلك النظام، قدراتها الذاتية لإدامة الحرب الداخلية بالوتيرة الرهيبة السابقة، وتزايد التدخل الخارجي فيها بصورةٍ مضطربة، وأدت توازنات القوى المتضاربة إلى العجز عن حسم الموقف لصالح أيٍ منها، وفيما كانت السماء تزدحم بشتى أنواع الطائرات الحربية، كانت الأرض نفسها لكل أشكال المليشيات الطائفية والجماعات الجهادية، الأمر الذي أنتج وضعاً يستحيل معه إيجاد حل سياسي، وتنافي فيه أيضاً القدرة على الحسم العسكري في المقابل.

في ظلال هذه الصورة المركبة، وعلى جانبي إطارها الواسع، بدأت ترتسم، منذ عدة أشهر، لا سيما بعد معركة حلب أواخر العام الماضي، معالم أربع حروب كبيرة، من المقدر لها أن تتشعب تباعاً، وربما على نحو متزامن، بين القوى المنخرطة في صراع النفوذ الإقليمي والدولي، فوق خشبة مسرح حربي، يطلّ على فناءٍ يتربص فيه الجميع، وتقابل فيه الحساباتُ والتحسّباتُ والهواجس وجهاً لوجه، وتتواءز في المصالح المتضاربة والأوزان النسبية المتعادلة، والأدوار والادعاءات والأوهام التي راحت تترجم نفسها عبر خطط خرجت من الأدراج، ووضعت على سطح المائدة.

ومع أن الحروب المحتملة هذه سوف تجري في نطاق الجغرافيا السورية، أي أنها سورية بالتعريف المكاني، إلا أن السوريين أنفسهم ليسوا طرفاً فيها، إلا في الحدود التي تبرّر للاعبين الكبار تسویغ هذه الحرب أو تلك، وتبير المزاعم المتهاففة حول الحرص على وحدة الأراضي الوطنية، والدفاع عن السيادة التي باتت أثراً بعد عين، الأمر الذي من شأنه أن ينقل مجريات الاشتباكات الجارية من مفهوم "الحرب في سوريا" إلى مفهوم "الحرب على سوريا" بصورةٍ أوضح مما كانت عليه في

تقوم هذه المقاربة على فرضية قوامها حدوث خمس حروب وشيكة، إحداها من المستبعد وقوعها تماماً، وإن لم يكن من المستحيل نفيها قطعياً، ونعني به الصدام الجوي بين القوات الروسية ونظيرتها الأميركية، فيما الحروب الأربع الأخرى دخلت في طور المقدمات المفاضية، بالضرورة الموضوعية، إلى مرحلة تطبيقية لا راد لها، لا سيما بعد أن استنفذت الحرب بالوكالة أغراضها، وتحول القتال فيها إلى عمليات قتل موضوعية لا أثر حاسماً لها على المجريات الكلية، على الرغم من جسامته آثارها البشرية والمادية على مجموع الكتلة السكانية السورية النازفة والممزقة.

أولى هذه الحروب وأكثرها وضوحاً لعين المراقب، الحرب التي اجتازت مرحلة قرع الطبول، وبدأ غبار معاركها المتفرقة يلوح في أفق بادية الشام، بين المليشيات الإيرانية العازمة على إقامة "كاريدور" بري واصل بين طهران وبيروت، وبعضهم يدعى وصوله إلى غزة، وبين القوات الأميركية كثيفة الحضور جواً، ومتزايدة الثقل البشري أرضاً غربي نهر الفرات، ولعل رافعة مثل هذه الحرب، وداعها الجوهرى، ينطلق من أن هذا الجسر يمثل إنجازاً جيوستراتيجياً إيرانياً بالغ الأهمية، فيما يمثل للولايات المتحدة خسارة استراتيجية ثقيلة، أحسب أنها غير مقبولة لدولة عظمى، وضفت طهران على رأس جدول اهتماماتها في هذه الآونة، بعد أن تم تصنيف إيران دولة راعية للإرهاب في العالم.

ثاني هذه الحروب التي قد تنشب في أي لحظة مفاجئة، هي بين إسرائيل والمليشيات الإيرانية ذاتها، بما في ذلك حزب الله، حيث من المرجح أن يندلع لهبها في الجولان والقنيطرة، وليس في جنوب لبنان هذه المرة، خصوصاً إذا واصلت هذه المليشيات تقدمها البطيء نحو الهضبة السورية المحتلة، ونجحت في وضع قدم لها قبالة الحدود، التي من شأنها أن تتحقق لطهران منطقة احتكاك إضافية مع العدو الذي تبرر به سائر حروبها وتدخلاتها وخسائرها في الهلال الشيعي، وتدعى أن ذلك كله سيهدى لشطب إسرائيل عن خريطة الشرق الأوسط.

أما الحربان اللتان من المرجح نشوئهما في المدى الزمني المنظور، فمن المحتمل أن يأخذ كل منها شكل حرب استنزافٍ طويلة، تتراهى أولاهما عن قرب في الشمال السوري، بين تركيا والوحدات الكردية، حيث من المحتمل لها أن تبدأ في منطقة عفرين وشمالي حلب، ثم تمتد شرقاً إلى منطقة تل أبيض، وثانيةهما تتراهى عن بعد، وقد يأذف أوانها في المدى المتوسط، ونعني بها خاتمة "الحروب على سوريا" بين المليشيات الإيرانية وبقايا قوات النظام السوري والحليف الروسي من جهة، وبين الجيش الحر والكتائب الإسلامية، خصوصاً جبهة تحرير الشام التي تمركزت في إدلب، واقتصرت لنفسها حصة من الجغرافيا السورية.

ولعل السؤال المنطقي هو؛ ما الذي ستفضي إليه كل هذه الحروب المتوقعة في سوريا، إن لم تؤد إلى تقسيم البلد على نحو واقعي، ومن دون إعلاناتٍ مجلجلة؟ ولعل السؤال الآخر، وهو الأكثر تعلقاً بالأمنيات هو؛ هل من سبيلٍ إلى درء كل هذه الحروب، أو احتواء بعضها على الأقل، إذا كانت تنطوي، في مجموعها، على مواجهاتٍ قد تخرج عن نطاق السيطرة، وتؤدي إلى نتائج بالغة الخطورة، وذات مضاعفاتٍ لا يمكن التنبؤ بها من الآن، بما في ذلك امتدادها إلى مناطق مجاورة، مثل جنوب لبنان أو شرق العراق أو جنوب تركيا مثلاً؟

بما أن المليشيات الإيرانية تمثل القاسم المشترك الأعظم في كل هذه الحروب المرجحة بقوة، بحكم التطورات التي تسبق نفسها بنفسها، فإن السبيل الوحيد لاحتواء سلسلة الانفجارات المتوقعة، وكبح جماح المواجهات الخطيرة المحتلبة، هو تكبيد هذه المليشيات هزيمةً ثقيلة، سواء في البابية السورية على الحدود مع العراق، أو على تخوم هضبة الجولان، في

المنطقة الممتدة من درعا وحتى القنيطرة، على نحو يكسر إصرار نظام الولي الفقيه على إعادة بعث مشروعه الإمبراطوري في المنطقة، وبثنيه عن اللعب بالنار، والسيطرة على مزيدٍ من العواصم العربية.

العربي الجديد

المصادر: